مُناقشَات

حقائق تاريخيـــة

بقلم علي محافظـة

ذكر السيد ابراهيم ونوس في العدد الماضي من « الاداب » تحت عنوان مناقشات « فرعون ومحمد » انه ورد في كتاب الجغرافية للصف السادس الابتدائي المقرر في مدارس الجمهورية العربية المتحدة في بحث سكان الوطن العربي مايلي : «فكان منهم البابليون بين النهرين والفينيقيون على شواطىء بلاد الشام والمغرب والفراعنة والاقباط في حوض النيل وكل من سماهم الاجانب الساميين وليسوا في الحقيقة الا عربا . » واعتبر الاستاذ ونوس ماجاء في هذا الكتاب هو القول الفصل في ان الفراعنة عرب كما استشهد بقصيدة نشرت في « الاداب » كدليل تاريخي صادق على ماجاء في كتاب الجغرافية المذكور .

الا ان هذا القول فيه شيء كبير من الخطأ التاريخي ويحتاج الى تمحيص وتدقيق . فان كان الغرض مما جاء في الكتاب هو التوجيه القومي في تدريس التاريخ والجغرافية فيجب ان نلاحظ ان التوجيه القومي في تدريس التاريخ والجغرافية لايعني ان نشوه الحقائق . فالامانة في عرض التاريخ اجدى على الامة وعلى القومية من التزييف والانتحال .

والقول بان البابليين والفينيقيين والفراعنة والاقباط عرب قول يحتاج الى تعديل وتوضيح . فالعرب من المجموعة السامية والسامية ليست عرقا بل هي مجموعة لغوية . فلغات الشعوب المذكورة سابقا فيها الكثير من التشابه في قواعدها وكتابتها وافعالها واشتقاقاتها كما هي الحال في التشابه بين مجموعة اللغات اللاتينية . كما ان الكتاب اغفل ذكر العبرانيين الذين هم من المجموعة السامية مع ان هنالك تشابها كبيرا بين اللغة العبرية وبقية اللغات السامية .

فهل يحق لنا بالاعتماد على ماسبق ان نقول ان هذه الشعوب تنتمي الى اصل واحد هو الاصل العربي ؟ وهل نقصد بالاصل العربي العرق العربي ام الثقافة العربية ام الامة العربية ؟ فان قصدنا بالاصل العربي معنى العرق فمن الثابت لدى علم الاقوام ان سكان شمال افريقيا ومصر وسوريا والجزيرة العربية ينتمون الى فصيلة من السلالة البيضاء تلك الفصيلة المتوسطة التي تتميز بصفات فيزيولوجية معينة . هذا ويجب ان نلاحظ ان نظرية العرق نظرية أثبت العلم بطلانها ، فليس هنالك أمة او شعب نقي الدم بل ان العروق البشرية اختلطت منذ عصور ما قبل التاريخ ولم يعد هنالك عرق بشري خالص . ولو اعتبرنا التشابه اللغوي رابطة قومية لامكننا ان نقول ان اليونان يرجعون الى اصل فينيقي نظرا للتشابه الموجود بين الحروف الابجدية الفينيقية والحروف الابجدية اليونانية .

ولكن علينا قبل ان نصدر حكما تاريخيا كالحكم الذي نجده في كتاب الجغرافية المذكور ان نذكر ان تلك الشعوب القديمة التي اقامت على ارض الوطن العربي الكبير كان لكل منها مميزات خاصة بل كان لكل منها قومية ذات مقومات واضحة. ولكن هذا لايمنعنا من ان ندرس تاريخها وحضارتها . وعلينا ان نوضح للطلاب ان العرب قد اقاموا علاقات اقتصادية وثقافية مع هذه الشعوب قبل الاسلام . كما نشأت دول عربية في مناطق متعددة من بلاد الشام والعراق كالتدمريين والانباط والغساسنة والمناذرة . ولما فتح العرب المسلمون هذه البلاد استقبلهم سكانها كمنقذين لانهم حرروهم من ظلم البيزنطيين والفرس والاجانب . وكان ذلك كله من العوامل التي لعبت دورا كبيرا في تعريب سكان هذه البلاد .

ولا اعتقد ان توضيح علاقة هذه الشعوب بالعرب على النحو الذي ذكرته يتنافى مع التوجيه القومي العربي لتدريس التاريخ والجغرافية .

وقد اشار السيد ونوس في مكان اخر من المناقشة نفسها ان المصريين العرب الذين كان يقودهم ابراهيم باشا جاءوا الى بلاد الشام ليحرروها من الاتراك وانهم ليسوا غزاة . والحقيقة ان هذا الخطأ قد تردى فيه كثير من كاتبي التاريخ العربي الحديث معتبرين محمد علي باشا منقذ بلاد الشام من الاتراك . مع اننا لو رجعنا الى الحقائق التاريخية لوجدنا ان محمد علي قد غزا بلاد الشام مدفوعا بدوافع عدة أهمها :

اولا : حقده على السلطان العثماني محمود الثاني لعدم وفاء السلطان بوعده لمحمد علي القاضي باعطائه جزيرة كريت مكافأة على مساعدته له في حرب اليونان . وتمثل حقد محمد علي في عدم اشتراكه في الحرب ضد روسيا بعد موقعة نفارينو معتذرا بخسارة أسطوله. وزاد حقد محمد علي على السلطان بانتخابه خسرو باشا عدوه اللدود صدرا اعظم .

ثانيا : شعور محمد علي بضعف السلطان على اثر اندحاره في حرب اليونان وفي حربه ضد روسيا ، لذلك استغل محمد علي ثورة البوسنة على السلطان وهاجم بلاد الشام .

ثالثا : خلافه مع عبد الله باشا والي عكا الذي يعود الى الاسباب التالية :

م ـ عدم دفع عبد الله باشا ماستدانه من محمد علي عندما كان في مصر .

د ـ منع تصدير الاخشاب اللبنانية الى مصر لبناء الاسطول .

حـ ـ حماية المصريين الفارين من الجندية الاجبارية وعدم اعادتهم الى بلادهم .

هذا وقد انضم الامير بشير الشهابي الى محمد علي لانه كان في عداء مع عبد الله باشا والي عكا . ولا بد هنا من التنويه بان اهالي دمشق وغيرها من المدن رحبوا بجيوش محمد علي اول الامر لانه انقذهم من المصادرات والضرائب الباهظة التي كان يفرضها عليهم الولاة الاتراك ، ولكن ابراهيم باشا قائد الجيوش مالبث ان زاد في كمية الضرائب المفروضة على السكان بعد فترة وجيزة فأدى ذلك الى مقت السكان له كما مقتوا ولاة الترك من قبله . وهلل الشعب العربي في سوريا عند خروج جيوش محمد علي واقاموا حلقات الرقص والدبكة ولعلي أوضح هذه الفرحة الشعبية اذا ذكرت احدى الاهازيج الزجلية التي شيعت بها جيوش محمد علي وهي :

قومي ارقصي يا بنيه ... يا فطيم الحورانيه
قومي ارقصي الدبكه ... سبع جيوش مشتبكه
محمد باشا عى يبكي ... على فراقك سوريه .

ويدعونا هذا التعليل لغزو محمد علي باشا لبلاد الشام الى ضرورة التفريق بين مفاهيم القومية العربية والوعي القومي العربي

والحركة القومية العربية . فالقومية العربية حقيقة حية مستمرة منذ وجد العرب حتى اليوم . اما الوعي القومي في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ـ وهو الزمن الذي غزت فيه جيوش محمد علي سوريا ـ فقد كان ضعيفا لدرجة سيطرت عليه المصالح الذاتية والمطامع الشخصية . ولما كانت الحركة القومية هي تلك العملية التي تقوم بها الامة لتحقق ذاتها وتعبر عن اصالتها فالحق ان الحركة القومية العربية لم تبدأ في العصور الحديثة الا فيأواخر القرن التاسع عشر لما تأسست الجمعيات والاحزاب السياسية العربية التي كانت لها اهداف قومية واضحة والتي ادى نضالها الى ثورة عام ١٩١٦ م ضد الاتراك .

علي محافظة

جامعة دمشق ـ كلية التربية

مواقف متناقضة !

بقلم حسن جواد الجشي

لم اطلع على كتاب « الهلالية في التاريخ والادب الشعبي » للدكتور عبد الحميد يونس قبل ان اقرأ تعليق صديقي الاستاذ شريف الرأس عليه في العدد الثاني من الاداب تحت عنوان « أبو زيد الهلالي والفول المدمس » ذلك التعليق الذي اثار في نفسي كثيرا من الدهشة .

ولم يكن التعليق نفسه مثار دهشتي ، فرأيي في هذا الموضوع متفق مع رأي الاستاذ شريف ، ولكن الذي ادهشني بل آلمني ان ينحو الدكتور يونس هذا المنحى الاقليمي الضيق في كتابه الجديد ، وعهدي القريب به غير ذلك . ودعك من الاستاذ الخولي والفئة القليلة من أشياعه ممن يحاولون تفسير الادب العربي تفسيرا اقليميا محضا ، فهم رغم مناهجهم المصطنعة انما ينفخون في رماد ! انهم يجذفون ضد التيار وسيطويهم حتما في اعماقه !

ولقد شاءت الصدف ان تصل الاداب الى يدي وقد فرغت لتوي من قراءة كتاب جديد للدكتور بعنوان « الظاهر بيبرس في القصص الشعبي » . وكنت قبل ذلك بقليل اعيد النظر ، لهذه المناسبة ، في بحثه القيم « البطولة في الادب الشعبي » الذي ألقاه في مؤتمر الادباء العرب الرابع المنعقد بالكويت في اواخر عام ١٩٥٨ فعجبت اشد العجب للتباين الفاضح وللتناقض الغريب بين ما انطوى عليه كتابه الجديد « الهلالية ... » من آراء وبين ماورد في البحث وفي الكتاب الاخر من نظرات واتجاهات .

فهو يقول في كتاب « الهلالية في التاريخ وفي الادب الشعبي » :

« .. للاسف الشديد رأينا فريقا من الباحثين عندنا لايزالون على منهجهم القديم في النظر الى رقعة المتكلمين بالعربية على انها وطن واحد متجانس الخصائص والصفات ، وان الناس الذين يضطربون في هذه الرقعة مقيمين ومتنقلين ، وان تبلبلت السنتهم وتباينت منازعهم وطبقاتهم واختلفت قسماتهم وملامحهم ، تضمهم ارومة واحدة ، ولم يصبهم في طرائق الفكر والشعور تبدل او تحوير خلال العصور والاجيال . فآثرنا ان نتابع طريقنا في التمكين لهذه الفكرة الاقليمية من ناحية ، والعمل على مسايرة النهضة القومية الديمقراطية من ناحية اخرى .. »

ولنقرأ بعد ذلك هذه الفقرة المنقولة من بحثه « البطولة في الادب الشعبي » .. تحكي الملحمة الشعبية اذن الوجدان القومي العربي . ولقد ازدهرت في أواخر الحروب الصليبية بعد ان هدأت سورة هذا الوجدان وتكاملت الوقائع في خلده ، ولذلك رأينا هذه الملاحم تصبح زادا للامة العربية كلها على اختلاف اقاليمها ولهجاتها . وليس من شك من انها تأثرت من هذه اللهجات وتلك الاقاليم بعض الشيء ، ولكنها احتفظت بجميع مقوماتها ، بل احتفظت بجميع احداثها . ورواج بضاعة المنشد المحترف يدل في ذاته على احساس المجتمع العربي بشخصيته امام المجتمعات الاخرى ..... »

وليست هذه فقرة عابرة في البحث او رأيا عفويا تسلل اليه في غفلة من الكاتب ، بحكم التناقض القائم في صميم النظرة الاقليمية الى الادب العربي ، وانما هو يشكل الدعامة الاساسية له ، بل ان كل سطر فيه يكاد ينبض بمثل هذه الروح ، وبالفهم الواعي لوحدة الفولكلور العربي ، حتى ان صديقا اديبا علق بعد ان استمع للمحاضرة في مؤتمر الادباء قائلا : « هذه احدى معجزات عبد الناصر ! »

فالمعروف عن الدكتور انه ،كبعض ادباء الكنانة ، اقليمي في نظرته الى الادب . فالانعتاق المفاجيء من رقعة النظرة الضيقة الى رحاب النظرة القومية الشاملة ، والتأكيد على الجانب العربي الوحدوي في الفنون الشعبية ، كان في نظر صديقي الاديب انعكاسا للوعي بالقومية العربية التي اشعل جذوتها عبد الناصر في حنايا شعبنا العربي بمصر بعد ان ظلت خابية تحت رماد الزمن حقبة غير طويلة ..

ونحن نجد مثل هذا الاتجاه ، على نطاق اضيق ، في المقدمة التي صدر لها الدكتور كتابه « الظاهر بيبرس في القصص الشعبي » المنشور في سلسلة « المكتبة الثقافية » ، وهي سلسلة شعبية تصدرها وزارة الارشاد القومي بالاقليم المصري .

فما السر في هذا التناقض ؟

لو كنا نعرف السابق من اللاحق في هذه الابحاث لامكن دون عناء ان نرسم خط التطور في اتجاه الدكتور ونحدد جازمين ، موقفه الاخير من هذه القضية .

ولو انقضت فترة كافية من الزمن بين البحثين السابقين وبين بحثه الجديد بحيث يتاح للذهن خلالها مراجعة مفاهيمه الى حد الانتقال من النقيض الى نقيضه لالتمسنا له بعض العذر !

اما والامر الاول غير متيسر لنا ، والامر الثاني غير وارد ، فلا وسيلة اذن لنا الا الرجوع الى النصوص والاستعانة ببعض القرائن لازاحة الستار عن اسباب هذا التناقض .

ولنبدأ ببحث « البطولة في الادب الشعبي » فهو بحث اعده الدكتور كما نعلم ليلقى في مؤتمر يحضره نخبة من ادباء العروبة . وفي رأينا ان عوامل ثلاثة قد اضطر الدكتور الى اخذها بين الاعتبار عند اعداد البحث .

واول هذه العوامل الموضوع العام للمؤتمر « البطولة في الادب العربي» ومن غير اللائق ان يتسم البحث بصبغة اقليمية تبتعد به عن الروح العربية السائدة في ابحاث المؤتمر ، فان ذلك من شأنه ، وهذا هو العامل الثاني ، ان يثير عاصفة في المؤتمر قد لايقوى الدكتور على مواجهتها والصمود امام الحملات النقدية التي تواكبها ، كما حدث فعلا عندما وقف مندوب العراق الشيوعي الدكتور صلاح خالص ، باحثا عن البطولة بعد ظهور الاسلام وحتى سقوط الدولة العباسية ، فلم يجدها الا في حركة القرامطة الاعجمية التي عليها اكثر مما لها !!

اما ثالث العوامل فهو ان الدكتور عضو في وفد الجمهورية العربية المتحدة التي تدين بوحدة الوطن العربي وتحارب كل الحواجز المصطنعة التي تمزق شمل هذه الامة ، ملحة على وحدة التاريخ والمصير لهذا الشعب المترامي من المحيط الى الخليج .. فهل يجوز للدكتور ان يتحدى مبادىء الدولة التي جاء ضمن وفدها ، فيعلنها اقليمية شعواء ؟

ذلك ماسعى الى اجتنابه !

ويكاد مثل هذا القول ان ينطبق على كتابه « الظاهر بيبرس في القصص الشعبي » ، فقد صدر عن وزارة الارشاد في الاقليم الجنوبي للجمهورية العربية المتحدة كما ذكرنا ، وفي سلسلة شعبية تصل الى ايدي عشرات الالوف من القراء العرب في مختلف اقاليمهم وعلى مختلف مستوياتهم الثقافية ، فالتفسير الاقليمي للقصص الشعبي في مثل هذه الملابسات فيه شيء من العسر ان لم يكن متعذرا !

يقول الدكتور في مقدمة كتابه « الظاهر بيبرس في القصص الشعبي » بعد ان اشار الى السير الثلاث على الترتيب التالي : سيرة « بني هلال » وسيرة « عنترة بن شداد » وسيرة « الظاهر بيبرس » « ... والملحمة الاولى اشهر الثلاث ولا تزال باقية مرددة في البلاد العربية الى الان ... » ومعنى ذلك انها اقرب هذه السير الى الروح العربية ، كما اكد ذلك صراحة في « الهلالية في التاريخ والادب الشعبي » عندما قال « تعد سيرة بني هلال من اروع القصص الشعبي في هذه البيئة المتأثرة ببيئتها الاولى التي انشأتها » ويعني بها البيئة العربية طبعا .

فاذا كان الدكتور قد بذل جهودا مضنية لتأكيد اقليمية سيرة بني هلال ومسايرة خطوطها « للروح القومي المصري من ناحية ولفلسفة الحياة التي درج عليها المصريون في جميع عصورهم من ناحية اخرى » على حد تعبيره ، وهي العربية الطابع والنشأة باعترافه ، أفما كان الاحرى به ان يحاول ذلك في سيرة الظاهر بيبرس ، ومصر تشكل الجزء الاهم من مسرح الحوادث فيها ؟

لا شك ان الملابسات التي احاطت بكتابة هذه السيرة ونشرها هي التي حالت كما اوضحنا سابقا دون هذه المحاولة ، تماما كما حملت هذه الملابسات الدكتور على اصطناع منهج قومي في النظر الى ملاحمنا الشعبية في مؤتمر الادباء العرب دون ان يصدر في ذلك عن عقيدة او اقتناع !

اما كتاب « الهلالية في التاريخ والادب الشعبي » فلم يقترن نشره بأي عامل من العوامل السابقة ، فهو لم يظهر في سلسلة شعبية ، ولم تشرف على نشره جهة عربية رسمية ، كما انه لايمثل وجهة نظر جماعية ، فهو اذن كتاب للخاصة . ولذلك ارسل الدكتور نفسه في صفحاته على سجيتها ، ووجد فيه مجال القول واسعا للتعبير عن آرائه التي يؤمن بصحتها ، معتبرا ابحاثه التي اضطر الى المجاملة فيها ، حسب تفسيرنا للموقف كله ، وقوفا عن السير في طريق دعوته الاقليمية ، بدليل ماورد في الفقرة السابقة التي نقلنا جزءا منها في اول هذا التعليق والتي يقول فيها « ... فآثرنا ان نتابع طريقنا في التمكين لهذه الفكرة الاقليمية من ناحية والعمل على مسايرة النهضة القومية الديمقراطية من ناحية اخرى » .

فهو يؤثر متابعة طريقه الاقليمي ، والايثار لا يتم الا عن قصد وروية وهو يمكن للفكرة الاقليمية ، والتمكين ينطوي على الايمان والاصرار . اما النهضة القومية فهو يكتفي بمسايرتها ، والمسايرة قد يكون فيها مجاملة وتكلف ، وكثيرا مايكون فيها حمل للنفس على غير ماتهوى او تعتقد .

ثم ما الذي جعله يزج بالديمقراطية في هذا المجال الادبي ؟ الا تلاحظ معي انه يرمي الى ان يجعل منها ستارا لارسال القول بغض النظر عن آثاره الاجتماعية ، وذريعة لتحريف معاني التراث الشعبي العربي ومبررا للتفسير الاقليمي للادب باسم حرية الفكر والتطور ؟

ان هذه الاقليمية الادبية وما تنطوي عليه من اخطار في هذه المرحلة الحاسمة من كفاحنا المرير المسؤول ، لاعادة بناء امتنا وايقاظ وعيها وجمع شتاتها وتخطيط طريقها الصاعد ، لاتقل في عواقبها عن خطر اخر يعكسه موقف الدكتور يونس من هذه القضية ، واعني به خطر « النفاق الثقافي » .

ان الكلمة رسالة ومسؤولية ولا سيما اذا صدرت عن رجل يتبوأ مركزا من مراكز الفكر والتوجيه . وهذا الوعي لقيمة الكلمة .. لرسالتها ، وما ينشأ عنه من التزام داخلي ، يضعنا وجها لوجه امام مسؤولية ردود الفعل التي تثيرها حولها . وفي هذا الضوء نحدد موقفنا وننافح عنه بثبات وصراحة . وبذلك نتيح للاخرين ان يحددوا موقفهم القاطع منا ، تأييدا او معارضة . وهكذا يسير الجميع في وضوح وعلى دراية بالغايات والاهداف .

اما الانفصال عن الموقف الاصيل للفرد ومحاولة الالتصاق بمواقف مفتعلة تبعا للظروف الطارئة ، ففيه اهدار للقيم الفكرية وهروب من المسؤولية وتنصل من تبعة الرأي .

الكويت — حسن جواد الجشي

بين شكري وبدور

بقلم سعد صموئيل

يقول الاستاذ غالي شكري في مقاله « محاولات سيكلوجية بين فرويد وبافلوف » (١) ان الوضع التاريخي لسلامه موسى كان يحتم عليه ان يكون ابا للنظرة العلمية في ميادين الفكر العديدة . ولا شك ان النقد الادبي هو احد هذه الميادين التي خاضها سلامة في حدود امكانياته التاريخية . ولكن مرحلته ما كانت تتحمل الافاضة المعمقة في كل موضوع طرقه بنظرته الموضوعية الجديدة للحياة . لذلك كانت جهوده الادبية ، تتسم بطابع شعبي سريع بعيد تماما عن المعالجة الاكاديمية المتخصصة . اما المرحلة التي تلت سلامه ، فان ابرز من يمثلها في رأيي ، هو الاستاذ محمد مفيد الشوباشي ، وان تميزت مرحلته بالتخصص والتعمق والافاضة والتركيز(٢) . ثم اقبلت حركة محمود العالم وعبد العظيم انيس في خط مواز لجهود الشوباشي ، لترتبط اكثر واكثر بالنهج العلمي العظيم في بحوثها التقدمية ودراساتها .

وفي تلك الفترة كان هناك جيل جديد من الاباء الشباب ، لا تصاحبه حركة تقدمية منبثقة من اعماقه هو ، ومسلحة في نفس الوقت بنظرة علمية واضحة الملامح . الى ان بدانا نقرأ للاستاذ غالي شكري ، واحسنا بمنهجيته في عمق ، جعلنا نؤمن بانه خير من يمثل النهضة الادبية الجديدة في مجال النقد الادبي. بل لعلنا نلتزم الدقة في التعبير اذا قلنا انه الناقد الوحيد ـ من بين نقادنا المحدثين ـ الذي ينهج في دراساته وبحوثه نهجا علميا خالصا ، بالمعنى الايديولوجي الصادق لهذا المنهج .

كان لابد من هذه المقدمة السريعة ، لتحديد نقطة انطلاق غالي شكري ، اذا ما طرحنا للبحث احد مقالاته . فان ورطة السيد علي بدور الحقيقية في رده على مقال « دفاع عن محمد » هو جهله بهذه النقطة . ومن هنا لم اكتشف انا كقارىء ، معنى واحدا من المعاني العجيبة التي نجح هو في اكتشافها من ثنايا المقال . ولنستعرض معا ما يقوله غالي شكري في هذه القضية (٣) :

١ ـ يقول انه بسبب النظرة الرومانسية التي لازمت المصريين في رؤيتهم لمأساة كفاحهم مع الدولة العثمانية « تبلورت الوطنية المصرية عند مفكرينا في بعث التاريخ الفرعوني .. لا بقصد الدراسة التاريخية العلمية ، وانما بهدف استعادة المجد التليد الى مخيلة الجيل الحديث . ولمسنا ـ على التو ـ انشغال الادباء واهتمامهم بهذا الماضي .. حتى جرفتنا هذه العناية المفرطة بالاكفان ، الى ان نهمل الاسباب الجذرية ، وهي ان مصر تئن تحت سياط الدولة العثمانية . وكان « الماضي » اذن بمثابة المحذر الذي أثمل عيوننا عن جوهر المأساة »

اعتقد ان هذا الكلام ـ الذي نشرته الاداب ـ قد كتبه غالي شكري باللغة العربية ، بالتالي اعجب ممن يتعامون ولا يقرأون انه وصف « بعث التاريخ الفرعوني » ـ في ذلك الحين ـ بانه مخدر وعناية بالاكفان !!

في ذلك الحين ، كان طه حسين يفتح عقيرته على اخرها قائلا انه ليس هناك خيط واحد يربطنا بالبلاد العربية . وكان سليم حسن يكتب عن الحضارة الفرعونية كأم لحضارات العالم . فاذا اتى غالي شكري ليقول ان تلك المحاولات كانت رومانسية مخدرة تبعث الاكفان ، قلنا انه فرعوني ، اما الباقون ، فهم الاباء الشرعيون للحركة العربية .

٢ ـ يقول الاستاذ غالي شكري ايضا عن مرحلة الاستعمار الانجليزي لمصر ، ان الدعوة القومية حينذاك كانت اكثر وعيا ، « فقرأنا القصص الانساني الذي يتخذ من اجدادنا خامة فنية يصور بها الام حاضرنا ومشكلات عصرنا » وهو يقصد بلا شك اعمال نجيب محفوظ (١) وعادل كامل (٢) وغيرهما من استلهموا التاريخ الفرعوني في معالجة قضايا عصرية . فاذا رأينا اداب العالم كله تغترف من اساطير الاقدمين ، لاستطعنا ان نرى في محاولات ادبائنا امرا طبيعيا ، يدلنا على طبيعة المرحلة التاريخية التي كنا نعيشها .

٣ ـ ثم يقول غالي شكري بوضوح « ما اخناتون الا رمز لفكرة التوحيد . وليس هناك مذهب او فلسفة في العالم الفرعوني حتى يمكن اعتناقها » . وهكذا لا يبقى امام كل ذي عينين وعقل ، الا ان يقرأ ويفهم !

اما الاستاذ بدور فاني اخذ عليه شيئا هاما في البداية ، وهو انه رغم ايمانه بان القضية المطروحة اكبر من هذا الكاتب او ذاك ، فانه في واقع الامر ينزل بالمناقشة الى مستوى الخصومة الشخصية ، فتجيء كلماته خالية من الموضوعية مليئة بالنكات والدم الخفيف . وليس هذا بأكثر اهمية من العناصر التي تؤلف فيما بينها منهجه في الكتابة. وهذه العناصر ، كما اراها ، هي الاستعداد ، والارهاب ، وما يسميه فولتير بالجهل النشيط .

انه ، مثلا ، يقول « لا اؤمن باي سلاح يشهر في وجه من حمل قلما يدافع به عن فكرته » فتحس انه رجل حر يؤمن بالحرية . ولكنه ما يلبث ان يقول مخاطبا غالي شكري (٢) « .. وانت لست الوحيد الذي يدعو للفرعونية بأكثر من اسلوب .. رغم وضوح رأي اكبر راس في الدولة .. في مسالة الفرعونية » ولا افهم ماذا يكون ذلك ان لم يكن استدعاء صريحا مقصودا ، سرعان ما يفتضح حين يستطرد « وانا لم استشهد به ، لاعتقادي انه لم يحن الوقت لذلك (كذا !!) اما الان ، والسلطات في رأيك تنصب المشانق (!!!) ، فاني اريد ان ادلك على الطريق .. الخ » . ومرة اخرى لست افهم ماذا يكون ذلك ، ان لم يكن ارهابا رهيبا ؟!

لقد اثر الاستاذ ان يدخل السلطات طرفا في الخصومة الى جانبه (واذا كان سلاحه القلم ، فللسلطات اسلحة اخرى !!) وبنى مقاله كاملا على مرجع واحد هو الخطب السياسية ، وطالب وزارة التعليم بمراجعة كتاب الدكتور لوقا ، وهدد هذا بأن يتفي عن كتابة هذه « الشبهات » والا .. ! ثم وضع لمقاله عنوانا هو (فصل الخطاب) !!

.. وبعد ذلك يتوهم ـ وله العذر ـ انه حر ، ويؤمن بالحرية .

اذا انتقلنا بعد ذلك الى ما يسميه فولتير بالجهل النشيط ، رأينا صاحبنا يتمتع بقدر كبير منه . فاننا بعد ان وجدناه يستند على

(١) راجع مجلة «العلوم » اللبنانية ، عدد يناير ١٩٦٠

(٢) راجع اعداد مجلة « الثقافة » المصرية .

(٣) راجع « فرعون من جديد » ـ غالي شكري ـ الاداب ـ عدد مارس ١٩٦٠

(١) راجع « كفاح طيبة ، عبث الاقدار ، رادوبيس »

(٢) راجع « ملك من شعاع » وهي تحكي ثورة اخناتون الروحية .

(٣) راجع « فصل الخطاب في الفرعونية » ـ الاداب ـ عدد ابريل سنة ١٩٦٠

الخطب السياسية كمرجع يتيم لكلماته ، نجده يقول بصراحة يحسد عليها : « ولا يمكن لنا ان نصدق كلاما اخر يقوله اي انسان » والحق ان هذه الجملة اكبر من التعليق عليها !

ثم يقول « ان العروبة عندما صبغت المنطقة بالصبغة العربية ، وضعت على رف التاريخ القديم كل امجاد الفراعين ، ودفنت الى الابد عربة رمسيس الثاني .. ان مصر العربية لاتعترف باعجاد اي فرعون من امنتحب الى رمسيس الثاني » .

وانا لست دهشا من هذا « الجهل النشيط » ، بعدما اتضح المستوى الرهيب الذي يتحدث به هذا السيد .

ففي الوقت الذي تنادي فيه حكومة القاهرة ، العالم ، بان يساهم في انقاذ اثار النوبة ، وفي الوقت الذي توجه فيه هذه الحكومة صرخاتها الى متاحف الدنيا لاعادة عصا توت غنج امون ان وجدت . في هذا الوقت يقول الاستاذ الاديب هذا الكلام . ولعله سيفاجأ باسف شديد حين يعرف ان عربة رمسيس الثاني بعثت من جديد ، فقد اختارت حكومة القاهرة اسم « رمسيس » لاول عربة من انتاج المصانع المصرية !. ورغم ذلك ، فاني اجد ا لاستاذ منطقيا جدا مع نفسه ، مادام كفره بالحضارة الانسانية في بقعة من الارض ، وفي زمن ما من التاريخ ، بلغ هذا الحد المزعج ، حتى انه يردد في تبجح مزر « ان كان ثمة حضارة واثار » ، و « ان كان ثمة قيم » .. فيصبح هذا التشكيك في معالم التاريخ الحضاري للانسان هو هدفه الوحيد . ولذلك تراه يقول «امنوا بتاريخ مصر العربي اولا ، وتحدثوا عنه ، واستلهموا ابطاله وعباقرته ، ثم تحدثوا عن اخناتون وابي الهول كما تشاءون ، اما ان تبداوا من المؤخرة لتطمسوا المقدمة فهذا الذي نحاربه ما حيينا » .. وليغفر لي سيادته ما يمكن تسميته بغبائي . فانني لا افهم تاريخا انسانيا منفصلا عن بعضه على هذا النحو . وربما اتضح ذلك اكثر حين يقول « الحقيقة ان مصر مصران : مصر القديمة التي اذاب شخصيتها الفرس واليونان والرومان ، ومصر الجديدة التي كونت العروبة شخصيتها . وليس بينهما اتصال سوى الارض ... فتاريخ المنطقة كله اذن تاريخان ، تاريخ قديم متنافر مختلف ليس للعروبة علاقة به على الاطلاق ، وتاريخ حديث حي ، هو تاريخ الامة العربية » . وهذا لعمري ، تقسيم جديد للتاريخ ، احسد صاحبه على الجراة في اعلانه . ولنذهب مع سيادة المؤرخ العبقري الى بعيد حيث يقول « ليس في التاريخ العام نص واحد، يدل على انه كان لمصر وقت ذهاب المسلمين اليها شخصية دولة او كيان حضاري واضح » !!

واذا كانت الشعوب تتعثر في طريقها الحضاري الى حد ما ، اذا ابتليت بغزو او استعمار ، فان هذا لا يمحو كيانها الحضاري وشخصيتها المتميزة .. والا فيمكن القول بان العالم باسره لا يملك ناحية حضارة انسانية واضحة ، لان شعوب الارض جميعا ، اصابها الرزء يوما على ايدي الغزاة والمستعمرين .

ثم تاتي بعد ذلك ، بضع جزئيات تتصل بالموضوع ، اثارها الاستاذ بدور بغير ان يكون الاستاذ غالي شكري قد ابدى فيها الراي .. فغالي شكري لم يناقش ابدا مشكلة انتشار الاسلام في مصر او المسيحية في الاندلس . لان هذه كلها آراء تتعصب للاديان السماوية ، التي ينظر اليها غالي شكري من زاوية علمية تجرده من التعصب ، وتجعل هذه المرئيات امام عينيه كظواهر تاريخية .

ومع ذلك ، فهناك عدة نقط يعنيني مناقشتها . كان السيد بدور فيما مضى (١) يؤكد ان المصريين عرفوا اللغة العربية قبل الاسلام . ولكنه عاد بتواضع ، ليقول بالحرف « فلما انتشر الدين الاسلامي ، انتشرت اللغة العربية » . ثم يفرق من جديد ، بين العرب والمسلمين من ناحية اتصالهما بمصر . والبديهات تقول ان الذين نشروا الاسلام في مصر هم العرب ، وكان يقودهم رجل عربي هو عمرو بن العاص ، الذي ارسل الى عمر بن الخطاب بالمفاجأة التي كانت تنتظره ، فقد دخل المصريون في الاسلام ، وماتت الجزية !!

والغريب جدا في الامر هو قوله « .. والفكرة الاساسية التي اريد ان اقولها هي ان المسلمين الذين دخلوا مصر لم يكونوا جيشا فاتحا ، بقدر ما كانوا جيشا من الدعاة للدين الجديد ، استوطن افراده البلد ونشروا لغتهم وعاشوا في تآلف مع اخوانهم الاقباط ، وطبعوا البلد بطابعهم العربي دون اكراه او ضغط » .. بينما هو بعد اسطر يصف الذي حدث قائلا « فمن شاء ان يبقى على دينه دفع الجزية ، ومن دخل الاسلام اعفى منها ، (ونسي ان يضيف ان من رفض الاثنين قتل) ولا اعتقد ان هذا الحل مناف للعدل » . وسؤالي اذن هو : اذا لم يكن الجيش الاسلامي جيشا فاتحا غازيا ، فكيف تسنى له القبض على مقاليد السلطة ، حتى انه يخير اهل البلد ، بين ثلاثة اشياء ، ايسرها الدخول في الاسلام ؟؟ اهذه حقا وسائل جيوش التبشير ؟

انني ما كنت اود اثارة هذه النقطة لانها دينية ، والتعصب الديني والنعرات الطائفية جميعها ، حان لها ان تموت .

اما التعريف الجديد الذي أتى به للعروبة فهو « ان من يتكلم هذه اللغة العربية ، واعتبرها معبره عن احاسيسه ووجدانه « نسي ان يسأل نفسه : «هل تنشأ الاحاسيس والوجدان من العدم ؟ » ،واندمج في الحياة الجديدة التي انطبعت بالطابع العربي بعاداتها وتقاليدها ومقومات حضارتها وتراث فكرها الاصيل ، اضحى عربيا بمقومات وجوده الانساني اولا ، وبمقومات وجوده القومي ثانيا ، وبمقومات وجوده الوطني ثالثا . فهو انسان عربي تجاه العالم ، وهو قومي عربي تجاه الامة ، وهو عربي وطني تجاه الدولة » ... وصدقني يا عزيزي ان تعريفك هذا في حاجة الى الترجمة الى اللغة العربية حتى يمكن فهمه . فما انت اعطيتني تحديدا واضحا حاسما لمعنى القومية ، او الامة ، او الشعب ، حتى نستطيع محاجتك . وما فهمته حقا هو قولك ان الجمهورية العربية لم تنص في دستورها المؤقت على دين للدولة(رغم وجود دول تقدمية جدا في اوروبا وامريكا لا تزال تنص على دين معين للدولة » . وهنا تبلغ يا صديقي الذروة فيما دعاه فولتير بالجهل النشيط . والا فانني اسألك : من هي الدول التقدمية التي تنص في دساتيرها على دين للدولة ؟ ان الدول التي تعنيها هي اعظم الدول تخلفا من هذه الناحية ، واشدها رجعية . اما الدول التقدمية فعلا ، فهل تلك التي ترى الدين من وجهة نظر علمية ، لا تملك الدولة ازاءها من ترك الاديان في علاقاتها بالبشر .

واخيرا اعتذر ، اذا كنت قد استطردت ، او جاء حديثي مبعثرا ،فنقاط البحث نفسها مبعثرة .

ولعل الخطأ الذي اخذه بعنف على الاستاذ غالي شكري هو غلقة باب المناقشة من جانبه ، بينما الكاتب اذا اثار قضية ما ، فعليه حينئذ ان يقف في الميدان الى النهاية . .

كلية الاداب ـ جامعة عين شمس

سعد صموئيل

(١) راجع « عندما تدافع الفرعونية عن لحن » ـ الاداب ـ عدد فبراير ١٩٦٠ .